تأسيس القاهرة

إعداد: هشام الجبالي



مرحبا بأصدقائى فى كل بقعة من أرض مصر.



أسمى **«نيل»** وُجدت منذ أن شق النهر مجراه فى أرضنا فجلب لها الخصب والنماء، عشت كل هذه القرون بينكم أصاحب أجدادكم القدماء فى رحلات البناء الطويلة، وأرافق أباءكم فى مسيرة العمل من أجل رقى مصر وتقدمها، أشاركهم أحزانهم وأأسى لهزائمهم، أسعد بإنجازاتهم وأشيد بانتصاراتهم، أعشق كل ماهو مصرى فأطوف بأرجاء البلاد شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، أبحث عن كل جديد، عن كل بناء وتقدم، أقضى النهار أحث أبناءها على بذل المزيد من الجهد، وأمسى لأحلم لها بغد أكثر إشراقا ومستقبلا يملأه الرقى والتحضر، أعتدت أن أصاحب الشيخ كثير النشاط والحركة **«تاريخ»** كلما جاء لزيارة أرضنا، أقص عليه أخبارها وأقدم له المساعدة ليسجل لها فى أوراقه جهد أبنائها وشموخ حضارتها، لهذا ستجدونى معكم عبر حكايات **«تاريخ»** وحوادث مصر وأخبارها.

موسوعة تاريخ مصر

المُحـــرر : هشام الجبالى | **الجمع التصويرى** : المكتب العربى للمعارف

الرسوم الداخلية : علاء حجـــازى | **الإخراج** : المكتب العربى للمعارف

هانى طه - إيهاب وصفى - حنان فتحى | **رقم الإيداع** : ١٩٩٤/٥٤٤١

المراجعة اللغوية : شوقى هيكل | الترقيم الدولى : I.S.B.N· 977-276-018-5

موسوعة تاريخ مصر

تأسيس القاهرة

إعداد: هشام الجبالي

بعد نجاحِ عَمْرو بْنِ العاصِ عامَ ٦٤١ في قيادةِ الجيوشِ العربيةِ صوب فتحِ بلادِ الفراعنةِ وبعد أن قام بطردِ رجالِ الإدارةِ والجنودِ البيزنطيين من أرضها، توجه صوبَ ملتقى وادى مصرَ ودلتاها حيث أقام مدينةَ الفسطاطِ التى ظلَّتْ عاصمةً للبلادِ ومركزًا لإدارتِها طوالَ عصرِ الراشدين ، وعندما انتقل حكمُ الدولةِ العربيةِ إلى أيدى بنى أميةَ في دمشقَ عامَ ٦٥٨ لم تتأثرْ مكانةُ الفسطاط كعاصمة للبلادِ إلا حينما شَيَّدَ عبدُالعزيزِ بْنُ مروانَ مدينةَ حُلْوَانَ ونقل إليها دواوينَ الإدارةِ التى سرعان ماعادت بعد وفاتِهِ إلى الفسطاطِ مرةً أخرى .

وفي عام ٧٥٠ سقطت الدولةُ الأمويةُ وقام بنو العباسِ بحكمِ إمبراطوريةِ العرب فشيَّدُوا شمالَ شرقى الفسطاطِ عاصمةً جديدةً يديرون من قصورِهَا شئونَ مصرَ العباسيةِ أطلقوا عليها اسْمَ العسكرَ، ومع ضعفِ قبضةِ بنى العباسِ على أقاليمِ إمبراطوريتِهِمُ اتجَّهَتْ أنظارُ قادةِ الإمبراطوريةِ المغامرين إلى مصرَ وقدم إليها أحمدُ بْنُ طولونَ عامَ ٨٦٨ عازمًا على الاستقلالِ بحكمِهَا، وفي طريقِهِ لتأكيدِ ذلك الاستقلالِ قام بإنشاءِ مدينةِ القطائعِ شمال شرقى العسكرِ ليتخذَ منها عاصمةً جديدةً لمصرِ الطولونية، وبعد مايقربُ من سبعةٍ وثلاثين عامًا هى كلُّ عمرِ دولةِ الطولونيين اجتاحت الجيوشُ العباسيةُ بقيادة محمدِ بْنِ سليمانَ الكاتبِ أرضَ مصرَ وقامت بتخريبِ القطائعِ ليعودَ مركزُ الحكمِ بعد تخريبِهَا من جديدٍ إلى العسكرِ حيث أقام ولاةُ بنى العباسِ طوالَ الثلاثين عامًا التى أعقبت فشلَ محاولةِ القائدِ المصرى محمدِ بْنِ الخَليجِ الاستقلالَ بحكمِ مصرَ، وكذلك فعل الأمراءُ الإخشيديون الذين لم يزدْ عمرُ دولتِهِمْ على أربعةٍ وثلاثين عامًا لم يكن الحكمُ خلالهَا في حقيقةِ الأمرِ إلا لمحمدِ بْنِ طُغْجِ الإخشيدِ مؤسسِ الدولةِ ومقيمِ دعائمِهَا، ثم لتلميذه وتابعه كافورٍ الذى قام بالوصايةِ على ابْنَيْه أونُوجُورَ وعلىٍّ قبل أن يستقلَّ بالحكمِ طوال مايقربُ



الجامع الازهر

من عامين وأربعةِ أشهرٍ .

وإلى جانبِ تعددِ الاضطراباتِ الناتجةِ عن التصارعِ حولَ العرشِ الإخشيدى بعد وفاةِ كافورٍ، ازدادَتْ حدَّةُ ماكانت تعانيه البلادُ قبل رحيلِهِ من ضائقةٍ اقتصاديةٍ تسبَّبَ في حدوثِهَا نقصُ فيضانِ النهرِ لعدةِ أعوامٍ متتاليةٍ ،بينما كانت الأراضى المصريةُ تَئِنُّ تحت وطأةِ ندرةِ المياهِ والغذاءِ وكثرةِ الاضطراباتِ والفوضى، وأراضى الدولةِ العباسيةِ في الشرقِ آخذةٌ في مواصلةِ السيرِ صوبَ التفككِ والوهنِ ، كانت أراضى الساحلِ الشمالى لقارةِ إفريقيا قد تجمعت

تحتَ لواءِ الدولةِ الفاطميةِ، هذه الدولةُ الفتيةُ التى ما إن استعدت جيداً للتحركِ نحو الشرقِ بعد أن حققت نجاحًا ملحوظًا في الغربِ حتى راحت ترسلُ بجيوشهَا وعلى رأسهَا القائدُ جوهرُ الصقلىُّ إلى مصرَ مفتاحِ الشرقِ وبابِ الفاطميين إلى قلبِ الدولةِ العباسيةِ، وهكذا وصل جوهرُ إلى الإسكندريةِ فدخلها دون مقاومة، ثم تقدم جنوبًا واستطاع أن يُلْحِقَ الهزيمةَ بجيوشِ الإخشيديين قبل أن يعطىَ أهلَ مصرَ عهداً بالأمانِ ويدخلَ بجنودِه الفسطاطَ والعسكرَ في شهرِ يوليو عامَ ٩٦٩ .

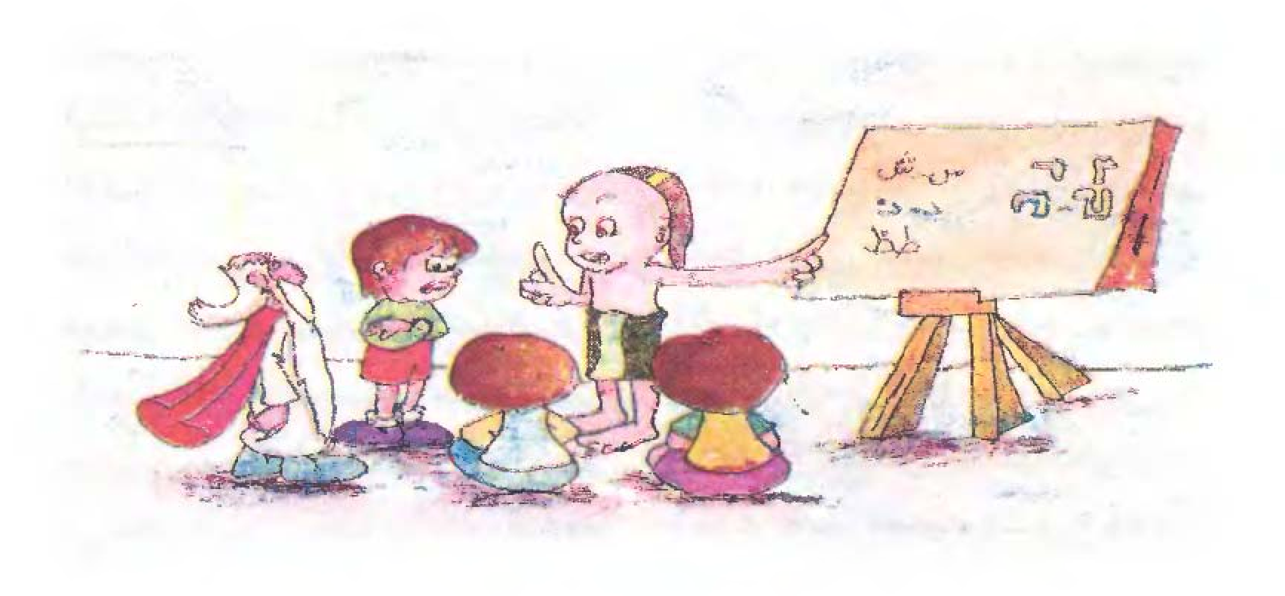
كنتُ في الفسطاطِ حينما تمكَّنَ جوهرُ الصقلىُّ وجنودُه من فرضِ سيطرتِهِمْ على بلادكُمْ وشاهدتُ بعينى كيف تحقَّقَ حلمُ الفاطميين في الاستيلاءِ على مصرَ بكلِّ ماتتمتَّعُ به من امتيازِ الموقعِ ووفرةِ الثرواتِ قبلَ أن أرحلَ متوجِّهًا إلى الغربِ ، حيثُ طُفْتُ بجميعِ بلدانِ القارةِ الأوربيةِ ومن شرقى أوربا حملتُ أوراقى وأقلامى واتجهتُ إلى بعضِ أقاليمِ غربى آسيا، ومن إقليمٍ إلى آخَرَ أفضى بى الترحالُ المتواصلُ إلى بلدانِ الشرقِ الأقصى التى أمضيتُ فيها بعضَ الوقتِ ، ثم عدتُ من جديدٍ أتوجَّهُ صوبَ الغربِ عازمًا على زيارةِ مصرَ، ولكنْ قبل أن أقصَّ عليكم ماجرى في رحلتى التاليةِ لها دعونى أَرْوِ لكم شيئًا مهمّاً كان قد حدث لى في أرضِ العراقِ عامِ ٩٩٩ ، فهناك في أحدِ مساجدِ بغدادَ عاصمةِ الدولةِ العباسيةِ التى لم يعدْ لحكامِ بنى العباسِ فيها سوى حملِ ألقابِ الحكمِ والإدارةِ، بينما يسيطرُ البويهيون على كلِّ ماتبقَّى لهذه الدولةِ من سلطانٍ ، التقيتُ بشابٍّ مصرىٍّ قدم لتوِّه من أرضِ الدلتا سعياً وراء الاستزادةِ من معرفةِ شيوخِ العراقِ في علومِ النحوِ والفقهِ والحديثِ، ولأن عزمى حينئذٍ كان قد استقرَّ على متابعةِ سيرى صوبَ الشرقِ الأقصى أردتُ أن أخفِّفَ من حدةِ شغفى لمصرَ وأخبارِهَا تحتَ الحكمِ الفاطمىِّ بما يمكننى وأن أعلمَه من ذلك الشابَ ، غيرَ أن الذى حدث كان على عكسِ ذلك تمامًا ، فما كدتُ أبدأُ الحديثَ معه حتى وَجَدْتُهُ

ينهالُ عليَّ بسيلٍ من الاستفسارات المتتاليةِ ويدلا من أن أعلمَ منه ماجرى لبلادهِ في عصرِهَا الفاطميِّ وجدتُني قد رحتُ أقصُّ عليه كلَّ ما أعلمُه عن حالِ العلومِ والفنونِ في مصرَ الإخشيديةِ . قائلاً :

لقد حرص الأمراءُ الإخشيديون على تشجيعِ التثقيفِ والدرسِ في مصرَ، فلم يكتفوا ببذلِ الأموالِ للمعلمين والمتعلمين ورعايَتِهِمْ في كلِّ سبلِ المعيشةِ لضمانِ تفرُّغِهِمُ الكاملِ للعلمِ والتحصيلِ فحسبُ، بل نجدُهم أيضًا يهتمون غايةَ الاهتمامِ بمجالسة البارزين من العلماءِ والأدباءِ محوِّلينَ قاعاتِ الإمارةِ في الكثيرِ من الأحيانِ إلى مضمارٍ تجرى في أركانهِ المناقشاتُ العلميةُ وتعلو في أرجائهِ أصواتُ النحاةِ والفقهاءِ والشعراءِ ولا أدلَّ على تفوقِ البلاطِ الإخشيدى على بلاطِ الحمدانيين وبنى العباس من تَرْكِ أبى الطيب المتنبى أحدِ أعظمِ شعراءِ العربيةِ سيفَ الدولة الحمدانى وذهابِهِ إلى العسكرِ ، حيث أقام في ضيافةِ كافورٍ الإخشيدى قرابةَ أربعةِ أعوامٍ نَظَمَ خلالَها الكثيرَ من القصائدِ في مصرَ وأميرِهَا الذى قال فيه :

وأخلاقُ كافورٍ إذا شئتُ مَدْحَهُ
وإنْ لم أشَأْ تُمْلِى علىَّ وأكتُبُ
إذا تَركَ الإنسانُ أهْلاً وَرَاءَهُ
وَيمَّمَ كافوراً فمَا يَتَغَـرَّبُ

فقال : حقّاً ، فقد أخرجَتْ أرضُنَا في العصرِ الإخشيدى الكثيرَ والكثيرَ



من رجالِ العلمِ والفقهِ والأدبِ البارزين.

فقلتُ له : لم تكنْ رعايةُ الإخشيديين للعلمِ والعلمــاءِ بأقلَّ من رعـــايةِ الطولونيين لهما ، وكما برز في مصرَ الطولونيةِ من تفوَّقٍ في تحصيلِ شتى أنواعِ المعارفِ ظهر أيضًا في مصرَ الإخشيديةِ من تميزٍ بالحذقِ والبراعةِ من العلماءِ والأدباءِ والمفكرين ، ففى العلومِ الإسلاميةِ برع كثيرونَ من أمثالِ أحمدَ بْنِ عَمْروٍ الطحانِ ومحمدِ بْنِ علىٍّ المصرىِّ والحسنِ بْنِ رشيقٍ في علومِ الحديثِ وعليِّ بْنِ عبدِالله السكندرى وأبى إسحاقٍ محمدِ بْنِ القاسمِ ومحمدِ بْنِ أحمدَ بْنِ الحدَّادِ في علومِ الفقهِ، وإلى جانبِ مَنْ برعوا في العلومِ الاسلاميةِ كان لمصرَ في عصرِهَا الإخشيدىِّ حظٌّ وفيرٌ في أبنائِهَا الذين برعوا في الآدابِ وعلومِ اللغةِ العربيةِ، إذ برع إبراهيمُ بْنُ عَبْدِاللّهِ النجيرمى وأبو بكرٍ محمدُ بْنُ موسى المعروفُ بسيَبَوْيه المصرىُّ في كتابةِ النثرِ وأحمدُ بْنُ محمدِ بْنِ طباطبا ومحمدُ بْنِ الحسنِ بْنِ زكريا في نظمِ الشعرِ ، كما برع من النحاةِ المصريين أحمدُ بْنُ محمدِ بْنِ وَلاَّدٍ وأبو جعفرٍ النحاسُ ، وكذلك لم تَخْلُ مصرُ الإخشيديةُ ممَّنْ برعوا في العلومِ العلميةِ من أمثالِ نطاسِ بْنِ جُرَيْحٍ وأبى الفرجِ البالسىِّ في الطبِّ ، وسيبويْهِ المصرى في الفلكِ إلى جانبِ براعَتِهِ في كتابةِ النثرِ وعلومِ اللغةِ العربيةِ.

فقال : ومع كلِّ هذا يبقى النصيبُ الأوفرُ من البراعةِ لهؤلاءِ المصريين الذين تميَّزوُا في تسجيلِ حوادثِ مصرَ وأخبارِهَا في العصرِ الإخشيدىِّ .

فقلتُ له : أتقصدُ ابْنَ يُونُس الصدفى والحسنَ بْنَ إبراهيمَ بْنِ زُولاَقٍ ؟

فقال : هما دون شكٍّ من أبرزِ مَنْ برعٍ في هذا العلمِ المهمِّ، ولكن يتبقَّى قبلَهما أن نذكرَ محمدَ بْنَ يعقوبَ الكِنْدىَّ معلمَ ابْنِ زُولاَقٍ وأولَ من سجَّلَ أخبارَ مصرَ حسبَ الولاةِ أو الأمراءِ بعدما كانت تسجَّلُ بحسبِ موقعِهَا الزمنىِّ عامًا من بعدِ آخَرَ .

وهكذا تملكتنى الدهشةُ حتى رحتُ أحدِّثُ نفسى بصوتٍ مسموعٍ قائلاً :

ابنُ يعقوبَ الكنديُّ ! كيف لم أسمعْ عنه شيئًا من قبلُ ؟!

وعندما لاحظ ذلك الشابُّ المصريُّ مدى حيرتى وتعجُّبى أخرج من بين أوراقهِ كتابًا صغيراً وأعطاه لى قائلاً: هذا جزءٌ من أحدِ مؤلفاتِ الكندى، يُمْكُنكَ أن تحتفظَ به كما يمكنُكَ إن ذهبتَ إلى مصرَ في أىِّ وقتٍ قريبٍ أن تبحثَ عن جميعِ مؤلفاتهِ ولن يُكَلِّفَكَ الأمرُ كثيراً ، إذ يكفى أن تذهبَ إلى سوقِ الوراقين بالفسطاطِ وستجدُ هناك كلَّ ماتبحثُ عنه، فهذا السوقُ ليس مجردَ موضعٍ يُنْسَخُ ويباعُ فيه كلُّ قيِّمٍ ونفيسٍ من المؤلفاتِ ، ولكنه كذلك ملتقى لجميعِ أهلِ العلمِ والثقافةِ في مصر، وهؤلاء لن يجهلوا بطبيعةِ الحالِ مكانةَ أبى يعقوبَ الكندى أو الموضعَ الذى توجدُ فيه مؤلفاتُه .

لم أعلقْ على كلماته ، بل أخذتُ منه ذلك الكتابَ ورحتُ أقلِّبُ صفحاته، حتى إذا ما انتهيْتُ من قراءتِهِ وطويْتُ أوراقَه بين دفتى غلافهِ المصنوعِ من الجلدِ المزخرفِ بزخارفَ نباتيةٍ وأشكالٍ هندسيةٍ غايةٌ في الروعةِ والإتقانِ ، وبينما كنت أفكرُ متعجباً من أمرى وأمرِ نيلِ الذى لم يذكرْ لى أيضًا أىَّ شىءٍ عن الكندىِّ ومؤلفاتهِ ، إذا بذلك الشابِّ المصرىِّ يشيرُ إلى زخارفِ الغلافِ الجلدىِّ قائلاً : وهل تُرَاكَ تعلمُ شيئًا عن الفنونِ المصريةِ في العصرِ الإخشيديِّ أم ...؟



طبق من الخزف – القرن الحادى عشر

وقبل أن يكملَ حديثَه قاطَعْتُهُ قائلاً : بذل الإخشيديون جهداً ملحوظًا في رعايةِ الفنونِ والاهتمامِ بعمارةِ مصرَ ، فاعتنى محمدُ بْنُ طغجٍ الإخشيدُ بتجميلِ عاصمةِ إمارتِهِ وتوسعةِ وتعميرِ مساجدِها، وواصل كافورُ من بعدهِ هذه العنايةَ فشيَّدَ عدةَ قصورٍ رائعةٍ بين الفسطاطِ والعسكرِ والجيزةِ، كما

أقـام بيتًا للمـرضى يشبهُ هذا الذى أقامـه ابْنُ طولونَ في العسكرِ ، ولكنَّ قِصَرَ عَصْرِ الإخشيديين من ناحيةٍ وتعدُّدَ الكوارثِ الطبيعيةِ التى أصابَتْ آخِرَ أعوامِهِمْ من ناحيةٍ أخرى جعلت من العَسيرِ على مَنْ يأتى بعدَهم أن يتلمَّسَ مدى جَهْدِهِمْ في هذا المجالِ .

فقال : هذا عن العمارةِ ، فماذا عن صنوفِ الفنونِ الأخرى ؟

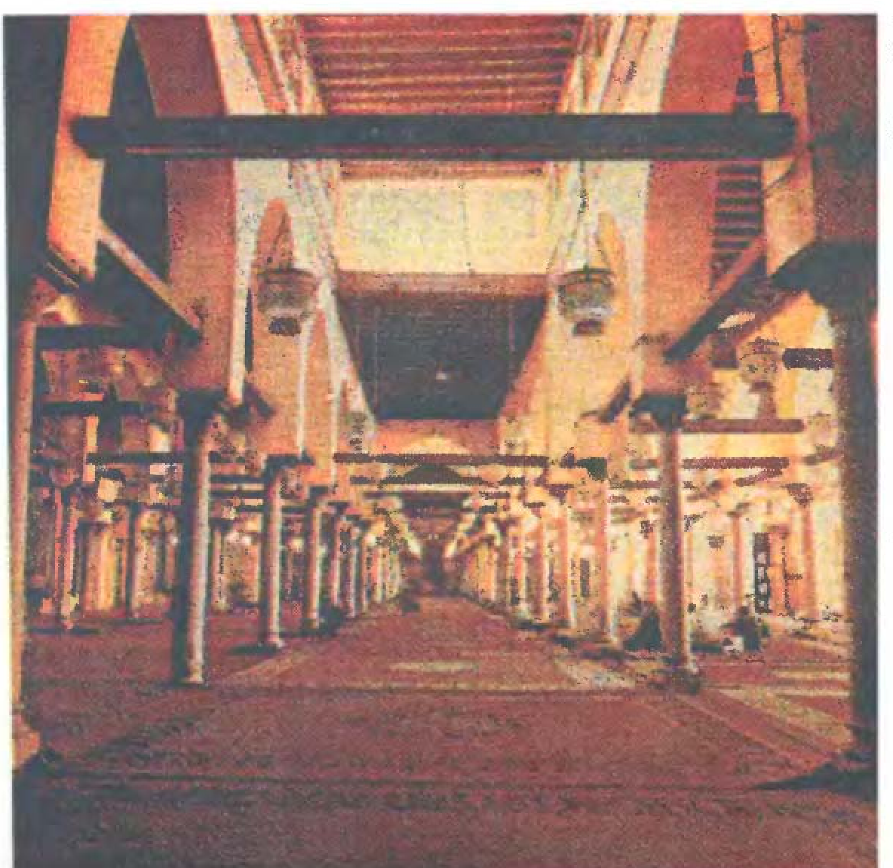
فقلتُ له : كانت فنونُ مصرَ الإخشيديةِ في مجملَهَا حلقةً من حلقاتِ تطوُّرِ الفنونِ الإسلاميةِ بشكلٍ عامٍّ ، إذ إنها ظلَّتْ لاتحملُ في تفاصيلِهَا مايدلُّ على طرازِهَا المصرىِّ المحلىِّ بقدرِ ماتحملُ سماتِ الطرازِ الإسلامى الذى سادَ في كلِّ أقاليمِ الدولةِ العباسيةِ ، مثلُها في ذلك مثلُ فنونِ مصرَ الطولونيةِ ومصرَ العباسيةِ والأمويةِ، ففى الزخرفةِ على النسيجِ استمرَّ الفنانُ المصرى يستعملُ رسومَ الطيورِ والحيواناتِ بالإضافةِ إلى الأشكالِ الهندسيةِ ، كما أكثر من استخدامِ الكتابةِ العربيةِ على مختلفِ قطعِ النسيجِ، ولم تخرجْ فنونُ الحفرِ على الأخشابِ عَمَّا كانت عليه فنونُ زخرفةِ النسيجِ ، وإن كانت صناعةُ الخزفِ قد تطوَّرَتْ تطورًا كبيرًا في مصرَ الإخشيديةِ ، فقد ظلَّتْ زخارفُهَا دون أىِّ تطورٍ ملحوظٍ .

وهكذا ظلَّ ذلك الشابُّ المصرىُّ يلقى علىَّ باستفساراته وأنا لا أملك إلا أن أجيبَه عليها استفسارًا بعد الآخَرِ، حتى إذا ما افترَقْنَا وجدتُ أنى لم أعلمْ منه أىَّ شيءٍ يذكرُ من أخبارِ بلادِهِ في عصرِها الفاطمىِّ وأن الفائدةَ الوحيدةَ التى خرجتُ بها من لقائه هى مؤلَّفُ ابْنِ يعقوبَ الكندىِّ الذى



بَقِيَ معى طوالَ رحلتى في بلدانِ الشرقِ الأقصى وحتى عَوْدَتى إلى بلادِكُمْ في رحلتى التاليةِ لها عامَ ١٠٣٦ .

ومنذُ اللحظةِ الأولى لوصولى إلى الفسطاط لم ألتفتْ إلى أيٍّ شيءٍ مما يدورُ من حولى مؤجِّلاً بحثى عن أخبارِ مصرَ الفاطميةِ إلى بعد حصولى على كلِّ ماخطَّه الكندى من مؤلفات ، على الرغمِ من شَغَفِى إلى معرفةِ كلِّ مادار ويدورُ خلفَ الأبوابِ الأربعةِ التى تحيطُ بالقاهرةِ عاصمةِ مصرَ الجديدة بقصورِ حُكَّامِهَا الرائعةِ التى يطلقُ عليها المصريون اسْمَ القصورِ الزاهرةِ وطرقاتِهَا المتسعةِ ودورِهَا العاليةِ التى يتألَّفُ أغلبُهَا من خمسةِ طوابقَ وحوانيتِهَا التى تقتربُ من العشرين



فناء الجامع الازهر

ألفَ حانوتٍ، وأسواقُهَا العامرةُ بأندرِ وأثمنِ ماينتجُهُ العالمُ من سلعٍ وبضائعَ، ولهذا ظَلَلْتُ أكثرَ من ثمانيةِ أسابيعَ أتنقَّلُ بين سوقِ الوراقين في الفسطاطِ ومنازلِ علماءِ مصرَ وأدبائِهَا في الفسطاطِ والعسكرِ والجيزةِ قبل أن أتمكَّنَ من الحصولِ على هذه المؤلفاتِ المهمَّةِ وأمضى بها إلى منزلِ نيلٍ، حيث التقَيْتُ به ودار بيننا حديثٌ طويلٌ بدأه بالترحيبِ بى ثم راح يتساءَلُ

بدهشة بالغة قائلاً : لقد علمتُ بوجودكَ في بلادنَا منذُ بضعة أسابيعَ، فلماذا تأخَّرْتَ في قدومكَ إليَّ هذه المرةَ ؟ !

فقلتُ له : عندما أخبِرُكَ بما فَعَلْتُهُ خلالَ هذه الأسابيعِ ستدركُ أننى لم أضيِّعْ شيئًا من الوقتِ بغيرِ فائدة .

فقال : لابدَّ وأنك قد جمعتَ الكثيرَ من أخبارِ بلادنَا تحتَ حكمِ الفاطميين وخاصةً أن آخرَ زياراتكَ لنا قد مضى عليها الآنَ مايقربُ من سبعةٍ وستين عامًا .

فقلتُ له : لم أتمكَّنْ من جَمْعِ أيَّةِ أخبارٍ، إذ إننى انشغَلْتُ طيلةَ هذا الوقتِ في البحث عن شيءٍ أهمَّ سأعرِضُهُ عليك ، ولكن بعد أن تقصَّ عليَّ ماجرى في بلادِكُمْ منذ رحيلى عنها وحتى اليومِ .

فقال : حسنًا يا أبتى ، فبعدما تمكَّنَ جوهرُ الصقليُّ من إحكام سيطرتِه على جميعِ أقاليمِ وادينا ودلتانا بدأ على الفورِ في وضعِ أساسِ مدينةٍ جديدةٍ شمالى العسكرِ والقطائعِ ليتخذَ منها الفاطميون مركزًا لحكمِ مصرَ وعاصمةً جديدةً تدار من خلالِهَا جميعُ أراضى القارةِ الافريقيةِ الواقعةِ داخلَ حدودِ دولتِهِمْ ، وبالاستعانة بالتخطيطِ الذى وضعه المعزُّ لدينِ الله الفاطمى بنَفْسِهِ أقام جوهرٌ وَسْطَ المدينة الجديدةِ قصرَ الحكمِ الذى عرف باسْمِ القصرِ الشرقىِّ الكبيرِ تمييزًا له عن مجموعةِ قصورِ الأمراءِ الفاطميين التى أنشئت من حوله ، وفي العامِ التالى لوضع أساسِ العاصمة الفاطميةِ التى أطلق عليها اسْمَ المنصوريةِ نسبةً إلى المنصورِ والدِ المعزِّ وضع جوهرٌ أساسَ المسجدِ الجامعِ الذى استغرق إنشاؤُهُ مايقربُ من العامين، وعرف باسْمِ الجامعِ الأزهرِ نسبةً إلى السيدةِ فاطمةَ الزهراءِ ابْنَةِ الرسولِ «صلى الله عليه وسلم» وأُمِّ الحَسَنِ والحُسَيْنِ بعدما كان اسْمُهُ عند تمامِ الإنشاءِ جامعِ المنصوريةِ أو جامعَ القاهرةِ فيما بعدُ .

فقلت له : أيَّ قاهرةٍ تعنى يانيلُ ؟ ألمْ يُطْلِقْ جوهرٌ على عاصمة الفاطميين في مصرَ اسْمَ المنصوريةِ ؟

فقال :بلى ياأبتى ، وقد ظلَّ

اسمُهَا هو المنصـوريةَ إلى أن جـاء المعـزُّ إلى مـصـرَ وأطلق عليـهـا اسْمَ القاهرةِ .

فقلت له : ومتى كان قدومُ المعزِّ إلى مصرَ ؟

فـقـال : قـبل أن أحَدِّثَكَ عن المعـزِّ وانتقالهِ بعرشِ الفاطميين إلى بلادنَا ، لابد وأنَ تعلمَ أن جوهرًا الصقلىَّ أكبرَ قادة الدولةِ الفاطمية ظلَّ يديرُ شئونَ مصرَ نائبًا عن المعزِّ قرابةَ أربعةِ أعوامٍ تمكَّنَ خلالَها من تمهيدِ الطريقِ وتهيئةِ الظروفِ تمامًا لانتقالِ الحاكمِ الفاطمىِّ إليـهـا ، إذ إنه قـضـى على كلِّ وجـودٍ للدولةِ العباسيةِ في شتى أرجاءِ الدلتا والوادى فحذف اسْمَ الحكامِ العباسيين والأمراءِ الإخشيديين من فوقِ العملاتِ المعدنيةِ واستبدلها باسمْ المعزِّ ، كما منع الدعـاءَ لهم عـلـى مـنـابـرِ المساجدِ وأقامه للفـاطمـيين ، بالإضـافـةِ إلى اهتـمـامه باسـتكمـالِ الفـتـوحـاتِ الفاطميةِ صوبَ الشرقِ ووقوفهِ في وَجْهِ الأخطار التى هَدَّدَت الوجـودَ الفـاطمىَّ في مصرَ.



تمثال من البرونز – القرن الحادى عشر

فقلتُ له : أيَّ أخطارٍ تقصدُ ؟

فقال : أرسل جوهرُ أحدَ قُوَّادِه وهو جعفرُ بْنُ فلاحٍ على رأسِ جيشٍ إلى فلسطينَ لتتبُّعِ فلولِ الجيوشِ الإخشيديةِ بقيادةِ الحسنِ بْنِ طغجٍ، وبعد مانجح ابْنُ فلاحٍ في إلحاقِ الهزيمةِ بالإخشيديين وقام بمطارَدَتِهِمْ حتى دمشقَ التى فرض سيطرتَه عليها عامَ ٩٧٠ ظهر خطرُ القرامطة[1] الشيعةِ الذين كانوا على وفاقٍ تامٍّ مع الفاطميين حتى وقتٍ قريبٍ، ثم مالبثوا أن رفضوا الاستمرارَ في بذلِ الطاعةِ للمعزِّ الفاطمى ، وخرجوا من شرقى شبهِ الجزيرةِ العربيةِ بتحريضٍ من الدولةِ العباسيةِ لمواجهةِ استيلاءِ الفاطميين على جنوبى سوريا بقيادةِ زعيمِهِم الحسنِ الأعهم ، وبفضلِ تشجيعِ البويهيين ومساندةِ الحمدانيين وبقايا الجيوشِ الإخشيدية حقَّقَ الأعصمُ انتصاراً كبيراً على الجيشِ الفاطميِّ وقتل قائدَهُ جعفرَ بْنَ فلاحٍ في دمشقَ عامَ ٩٧١ ، ثم واصل تقدُّمَهُ صوبَ مصرَ فوصل أرضَها في أوائلِ العامِ التالى ، وتمكَّنَ من الوصولِ إلى القاهرةِ التى أنقذَتْهَا مهارةُ جوهرٍ وما أقامه حولَها من سورٍ سميكٍ وخندقٍ متسعٍ بالإضافةِ إلى مساعدةِ المصريين في الدفاعِ عنها خوفًا من وقوعِهَا في أيدى القرامطةِ الذين اضطروا أمامَ اندلاعِ بعضِ الاضطراباتِ بعاصمةِ إمارَتِهِمْ في البحرين إلى الانسحابِ من مصرَ .

فقلتُ له : وبعد نجاحِ جوهرٍ في صدِّ جيوشِ القرامطةِ قدم المعزُّ إلى مصرَ ، أليس كذلك ؟

فقال : بلى يا أبتى ، ففى منتصفِ عامِ ٩٧٣ دخل المعز القاهرةَ في موكبٍ عظيمٍ يضمُّ جميعَ أمراءِ الدولةِ الفاطميةِ بكلِّ ما يمتلكونه من أموالٍ وأمتعةٍ، كما يضمُّ رفاتَ المهدى والقائمِ والمنصورِ لإعادةِ دفنِهَا في مصرَ التى تبدَّلَ وضعُها منذ ذلك العامِ من مجردِ ولايةٍ فاطميةٍ يديرُ شئونَها جوهرُ الصقلىُّ إلى مركزٍ لإمبراطوريةٍ

(١) كان القرامطة قد إستولوا على سوريا في أواخر عهد الدولة الطولونية، كما أنهم أيضا عادوا وإستولوا عليها بعد إنتصارهم على الحسن بن طغج في أواخر عهد الدولة الإخشيدية .



بوق من العاج - مصر الفاطميه

شاسعةٍ تمتدُّ حدودُهَا حتى سواحلِ المحيطِ الأطلسى ، ولأن المعزَّ كان يدركُ جيداً أن انتقالهَ بعرشِ آبَائِهِ إلى القاهرةِ يعنى نجاحَ الفاطميين في تحقيقِ قفزةٍ عظيمةٍ، وينبه في نفسِ الوقتِ إلى ضرورةِ الاستعداد لمواصلةِ الفتوحاتِ والتوسع صوبَ الشرقِ اعتماداً على ماستتيحهُ مصرُ من حسنِ الموقعِ ووفرةِ الثرواتِ حرص على أن يجمعَ بين يديه كلَّ سلطاتِ الحكمِ والإدارةِ وأن لايمنحَ أحداً مهما كانت قدرتُه ومكانتُه منها مايسِّرُ له الاستئثارَ بشيءٍ من النفوذِ، لذلك قام بعزلِ جوهرٍ من أغلبِ مناصبِهِ وإن أبقاه بجانبِهِ للاستفادةِ بما له من خبرةٍ ودرايةٍ، وأسند بعضَ هذه المناصبِ ليعقوب بْنِ كِلِّسٍ الذى كان أحدَ أهمِّ رجالِ الإدارةِ في آخرِ عهدِ الدولةِ الإخشيديةِ ، واضطر إلى الفرارِ من مصرَ بعد مصادرةِ أموالِهِ ولجأ إلى الفاطميين في تونسَ حيث كان عوناً كبيراً لهم في وضعِ خططِ الاستيلاءِ على الأراضى المصريةِ .

فقلتُ له : وهل كان للمصريين نصيبٌ في إدارةِ بلادِهِمْ أم استأثر

الفاطميون ومن قَدِمَ معهم من بلادِ المغربَ بكلِّ مناصبِ الحكمِ والإدارةِ ؟

فقال : لأن نظمَ الإدارةِ في بلادنَا أكثرُ عراقةً وتعقيداً مما ألفَهُ الفاطميون في تُونُسَ ، لم يستطعْ جوهرُ بعد مانجح في السيطرةِ التامةِ عليها أن يغيِّرَ رجالَ إدارتِهَا المصريين بمن جاء معه من المغربِ ، ولكنه مع اضطرارِهِ إلى الإبقاءِ على جميعِ رجال الإدارةِ المصريين قام بتعيينِ شركاءَ لهم في العملِ من رجالِهِ المغاربةِ استعداداً لانفرادِهِمْ بالوظائفِ التى شاركوا المصريين في شغلِهَا متى تيسَّرَ لهم ذلك، غير أن الحكامَ الفاطميين سرعان ما أدركوا مع مرورِ الوقتِ ما للمصريين من درايةٍ بكيفيةِ إدارةِ بلادِهِمْ فأبقَوْا عليهم وسَعَوْا بفضلِ جهودِهِمْ إلى تحسينِ نظمِ الإدارةِ وتعديلِ الكثيرِ منها .

فقلتُ له : وما التعديلاتُ التى أدخلها الفاطميون على إدارةِ البلادِ يانيلُ؟

فقال : قَسَّمَ الفاطميون مصرَ إلى أربعةِ أقاليمَ رئيسيةٍ هى إقليمُ قوصٍ ويديرُ واليه جميعَ مدنِ وقرى الوادى وإقليمُ الشرقيةِ ويدير واليه جميعَ الأراضى الواقعةِ شرقى فرعِ دمياط، وإقليمُ الغربيةِ الذى يضمُّ الأراضىَ الواقعةَ بين فرعى دمياطَ ورشيدٍ ، وأخيراً إقليمُ الإسكندريةِ ويشملُ أراضىَ الإسكندريةِ والبحيرةِ، وحرصوا على منحِ ولاةِ هذه الأقاليمِ حريةَ التصرفِ في شئونِ أقاليمِهِمُ الداخليةِ ، كما أنه يوجدُ لكلٍّ من الفسطاطِ والقاهرةِ والٍ يعتنى بشئونِ ساكنيهَا، وإن كانت مكانةُ والى القاهرةِ تفوقُ مكانةَ والى الفسطاطِ وولاةِ أقاليمِ البلادِ الأربعةِ بطبيعةِ الحالِ، وبفضلِ العنايةِ الفائقةِ التى بذلها الحكامُ الفاطميون لموظفى إدارَتِهِمْ صار رجالُ الإدارةِ في طولِ البلادِ وعرضِهَا يتمتعون بميزاتٍ ماليةٍ واجتماعيةٍ كبيرةٍ مما جعلهم لايدَّخِرُونَ جَهْداً في العملِ على الارتقاءِ بحالةِ مصرَ الاقتصاديةِ .

فقلتُ له : حسنًا ، ولكن ماذا فعل المعزُّ في شأنِ التوسعِ الفاطمى جهةَ الشرقِ ؟



رسوم على الورق – مصر القرن الحادى عشر

فقال : ظلَّ القرامطةُ بعد انسحابِهِمْ من حولِ سورِ القاهرةِ يسيطرون على دمشقَ ، كما أنه لم يكدْ يمضى عامان على ذلك الانسحابِ حتى عاودوا محاولةَ غزوِ مصرَ، وهنا أرسلَ المعزُّ جيوشَه لملاقاتِهِمْ بقيادة أحدِ أبنائِهِ لتتمكَّنَ الجيوشُ الفاطميةُ من إلحاقِ الهزيمةِ بالقرامطةِ واستعادة سيطرتِهَا على أراضى فلسطينَ وجنوبِ سوريا حتى دمشقَ التى استطاعَتْ دخولَهَا عامَ ٩٧٤ قبل أن تتوجَّهَ إلى الشمالِ الغربي لتخفيفِ حدَّةِ الهجماتِ البيزنطيةِ المتلاحقة على حدودِ العالمِ العربىِّ ، ولكنَّ هذه الانتصاراتِ لم تدمْ طويلاً إذ مالبثَتْ جيوشُ الفاطميين أن ارتدَّتْ إلى فلسطينَ أمام ثورةِ أهالى دمشقَ الرافضين للحكمِ الفاطمى ، وفي هذه الظروفِ العصبيةِ خرج البتكينُ أحدُ قادة الدولةِ العباسية الأتراكِ من بغدادَ بجنودِ فرْقَتِهِ على أثرِ نزاعِهِ مع البويهيين واتجه صوبَ دمشقَ فسيطر عليها وراح يستعدُّ لمنعِ الفاطميين من العودةِ إليها مرةً أخرى وقد توفى المعزُّ عامَ ٩٧٥ دون أن يضعَ حَدّاً لخطرِ ذلك القائدِ التركىِّ .

فقلتُ له : ومن الذى تولىَّ الحكمَ من بَعْدِهِ ؟

فقال : لأن هناك شيئًا مهماً يميِّزُ ولايةَ العهدِ في الدولةِ الفاطميةِ عما كان متبعًا في كلٍّ من الدولةِ الأمويةِ والعباسيةِ وهو ألاَّ يعهدَ الحاكم بولايه العهدِ إلا لشخصٍ واحدٍ هو أكبرُ أبنائِه سنّاً، فقد تولَّى العزيزُ أبو المنصورِ نزارُ ابْنُ المعزِّ الحكمَ وعمل على الرفعِ من شأنِ يعقوبَ بْنِ كِلِّسٍ حتى اتخذ منه وزيراً للدولةِ فكان بذلك أولَ من يشغلُ ذلك المنصبَ الرفيعَ في مصرَ الفاطميةِ ، ولأن ابْنَ كِلَّسٍ كان إلى جانبِ قدراتِه الإداريةِ الفائقةِ شغوقًا بالعلومِ والأدبِ استطاع أن يقنعَ العزيزَ بتحويلِ الجامعِ الأزهرِ من مجردِ مسجدٍ جامعٍ تقامُ فيه الصلواتُ إلى جامعةٍ ضخمةٍ نقلت إليها آلافُ الكتبِ والمخطوطاتِ ويُسِّرَتْ لأساتذتِهَا وطلابِهَا سبلُ المعيشةِ وأسبابُ الراحةِ، وبفضلِ جهودِ وزيرِه انطلق العزيزُ يكملُ تطويرَ نظمِ إدارةِ البلادِ فكان لما فعله بمعاونةِ ابْنِ كلسَ ومافعله المعزُّ بمساعدةِ جوهرٍ من قبلُ التأثيرُ الأعظمُ في وضعِ قواعدَ قويةٍ للحكمِ الفاطميِّ في مصرَ .

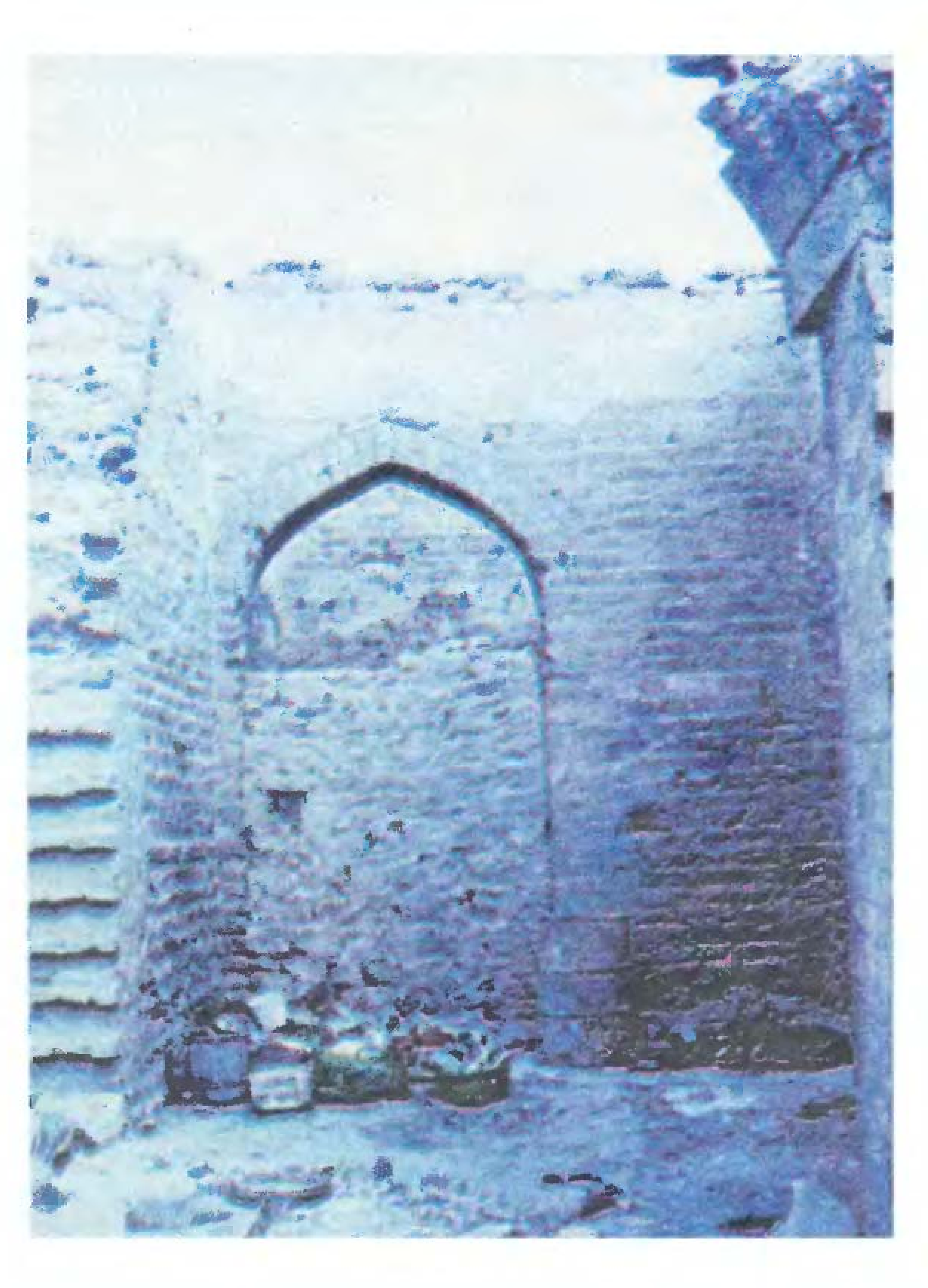
فقلتُ له : وماذا عن دمشقَ والبتكينِ التركيِّ يانيلُ ؟

فقال : أرسل العزيزُ جوهراً الصقليَّ على رأسِ جيوشِه صوبَ دمشقَ عامَ ٩٧٦ لإخراجِ البتكين منها، إلا أن اتحادَ البتكينِ والحسنِ الأعصمِ زعيمِ القرامطةِ أدَّى إلى إلحاقِ الهزيمةِ بجيوشِ جوهرٍ ، فلم يجدِ العزيزُ بُدّاً من الخروجِ بِنَفْسِهِ لنجدةِ جيوشِهِ حيث تمكَّنَ بعد وفاةِ الأعصمِ من تحقيقِ الانتصارِ وأَسْرِ البتكينِ ليفرضَ سيطرته على دمشقَ وجميعِ الأراضي الواقعةِ إلى الجنوبِ منها، وعلى الرغمِ من أن الفرصةَ كانت سانحةً حينئذٍ أمامَ الفاطميين لمتابعةِ فتوحاتِهِمْ في اتجاهِ أراضي الدولةِ العباسيةِ اكتفى العزيزُ لانشغالِه بالتصدِّي لأطماعِ البيزنطيين الذين تحالفوا مع الحمدانيين وصاروا يهددون سوريا أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى بالاتصالِ الوديِّ مع البويهيين الذين بذلوا له فروضَ التبجيلِ والمسالمةِ لعجزِهِمْ عن مقاومتِهِ والتصدِّي لقواتِهِ

، بالإضافةِ إلى مَدِّهِ لنفوذِ الدولةِ الفاطميةِ بشكلٍ غيرِ مباشرٍ إلى جنوبي العراقِ واليمنِ والحجازِ حيث دُعِيَ له على منابرِ مكةَ والمدينةِ .

فقلتُ له : وهل تصارعت جيوشُ العزيزِ مع الجيوشِ البيزنطيةِ بعد قضائِه على البتكينِ ؟

فقال : واجه العزيزُ الخطرَ البيزنطيَّ بكلِّ ماتوفر له من قوةٍ واستطاعت جيوشُه أن تستوليَ على مدينةِ حلبَ عاصمةِ حلفائِهِم الحمدانيين عامَ ٩٩٣ ، إلا أن البيزنطيين سرعان ما أعدُّوا جيوشَهم وأساطيلَهم وتوجهوا صوبَ حلبَ التي سقطت بين أيديهم قبل أن يتقدَّمُوا إلى مدينةِ طرابلس اللبنانيةِ ويضربون حولهَا الحصارَ، ولما علِمَ العزيزُ بما حدث



مسجد الشريفه - أحد مساجد الفاطميين في مصر

لجيوشه في سوريا ولبنانَ أسرع بإرسالِ المَدَدِ إلى طرابلسِ عن طريقِ البحرِ ، فلم يستطعِ البيزنطيون الاستيلاءَ عليها واضطروا إلى التراجعِ بسببِ اندلاعِ الاضطراباتِ في عاصمةِ إمبراطوريتِهمْ ، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ على حدوثِ ذلك التراجعِ حتى أمر العزيزُ بتجهيزِ أسطولٍ ضخمٍ وجيشٍ بريٍّ عظيمِ العددِ والعدةِ للزحف صوبَ الحدودِ البيزنطيةِ ، وما كادت تُستَكْمَلُ التجهيزاتُ وتستعدُّ الجيوشُ الفاطميةُ للتحرك عامَ ٩٩٦ حتى توفى العزيزُ ليخلفَه في الحكمِ أكبرُ أبنائِه الحاكمُ بأمرِ الله أبو عليٍّ المنصورُ وهو لم يتجاوزْ بعد الثانيةَ عشرةَ من عُمْرِهِ .

فقلتُ له : وكيف استطاع الحاكمُ أن يقومَ بأعباءِ قيادةِ الدولةِ الفاطميةِ في هذه السنِّ المبكرةِ ؟

فقال : قام بأعمالِ الوصايةِ على الحاكمِ في بدايةِ عهدِه مُربِّيه برجوان الصقليُّ الذى حاول الاستئثارَ بالسلطةِ دونه وإبعادَه عن ممارسةِ أيِّ دورٍ في إدارةِ شئونِ البلادِ، غيرَ أن الحاكمَ أدركَ على الرغمِ من حداثَتِهِ مايدبِّرُهُ له برجوانُ وتمكَّنَ من التخلصِ منه والانفرادِ بالأمرِ بعد مرورِ حوالى أربعةِ أعوامٍ على تولِّيهِ العرشَ، ومنذ نجاحِه في التخلصِ من برجوانَ الصقليِّ لم يُجْلِسِ الحاكمُ أحدًا على كرسيِّ الوزارةِ الذى خلا بوفاةِ يعقوبَ بْنِ كِلِّسَ، وحرص على أن يباشرَ بِنَفْسِه جميعَ مهامِّ الحكمِ والإدارةِ، ومع أن أعوامَ حكمِهِ الطويلِ حوت الكثيرَ من أعمالِ الإصلاحِ والعمرانِ كإنفاقِهِ بسخاءٍ على إنشاءِ وتحديثِ المنشآتِ الدينيةِ، حيث قام بتوسعةِ الجامعِ الأزهرِ وجامعِ عمروِ بْنِ العاصِ وإتمامِ جامعِ العزيزِ الذى عُرِفَ فيما بعدُ باسْمِ جامعِ الحاكمِ بأمرِ اللهِ، فضلاً عن تأسيسِهِ لدارِ الحكمةِ التى صارت بعد إنشائِهَا معهدًا ضخمًا تُدْرَسُ بين جنباتِه كافةُ فروعِ المعارفِ العلميةِ والأدبيةِ ، امتلأ عهدُه بالكثيرِ من القراراتِ الغريبةِ والأفعالِ العجيبةِ التى يصعبُ تبريرُهَا أو التعرفُ على أسبابِ حدوثِهَا .

فقلتُ له : ماذا تقصدُ بتلك القراراتِ



جامع الحاكم بأمر الله

الغريبةِ وهذه الأفعالِ التى لامبرِّرَ لها يانيلُ؟

فقال : أقصدُ قرارَه بتحريمِ بعضِ صنوفِ المأكـولات وأمـرَه بإتلافِ أشـجـارِ الكرومِ وعـدمِ العـودةِ إلى زراعـتِهـا حـتى لاتُصْنَعَ من ثمـارِهَا الخـمـورُ، وكـذلك مَنْعَهُ النسـاءَ من الخـروجِ إلى الطرقـاتِ عـلاوةً على مـغالاتِهِ في الزهدِ والتقشفِ وارتداءِ الثيابِ الخشنةِ في آخرِ عهدِهِ وخروجِهِ على ما استقرَّ عليه آباؤهُ في شأنِ ولايةِ العهد، حيث إنه اختار أَحَدَ أبناءِ عمومتِه ويُدْعَى أبا القاسمِ عبدَالرحيمِ بْنِ إلياسَ لولايةِ عهدِهِ عامَ ١٠١٣ على الرغمِ من أن أكبرَ أبنائِهِ أبا الحسنِ علياً كان قد بلغ حينئذٍ التاسعةَ عشرةَ من عمرِه، ومثلما كانت أغلبُ قراراتِ الحاكمِ وأفعالِهِ غايةً في الغرابةِ كانت نهايتُه أيضًا عامَ ١٠٢٠ غريبةً إلى حدٍّ أثار معه الكثيرَ من علاماتِ الاستفهامِ والتعجبِ، إذ إنه خرج في إحدى ليالى

ذلك العامِ لزيارةِ المرصدِ الذى أقامه بجبلِ المقطمِ لمراقبةِ حركةِ النجومِ، ولكنه قبل أن يصلَ إلى مرصدِهِ اختفى فلم يُعْثَرْ له على أثرٍ .

فقلتُ له : وإلى أين ذهب إذن ؟!

فقال : بعدَ بضعةِ أيامٍ من اختفائه عُثِرَ على بعضِ ملابسِهِ وبها آثارٌ لعدةِ طعناتٍ نافذةٍ، فقامت شقيقتُهُ سيدةُ الملكِ بنتُ العزيزِ بإعلان وفاتهِ وجلوسِ أكبرِ أبنائه الظاهرِ لإعزازِ دينِ اللهِ أبى الحسنِ عليٍّ على العرشِ الفاطمى، وهنا سرت بين جموعِ الشعبِ التخميناتُ تهمسُ بأن سيدةَ الملكِ كانت وراءَ التخلصِ من أخيها الحاكمِ خوفًا من أن تؤدىَ أفعالُهُ الغريبةُ وخاصةً توليتُهُ العهدَ لابن إلياسَ إلى اضطرابِ شئونِ البلادِ وتعرضِ الفاطميين ودولتِهِمْ لخطرِ الوهنِ والانهيارِ ، وبعيدًا عن كلِّ التخميناتِ التى انتشرت لتبريرِ اختفاء الحاكمِ استطاعت سيدةُ الملكِ أن تتخلَّصَ من عبدِالرحيمِ بْنِ إلياسَ وأن توطدَ أركانَ الحكمِ لابنِ أخيها الظاهرِ، وظلت تديرُ شئونَ البلادِ باسْمِهِ إلى أن لحقت بها الوفاةُ عامَ ١٠٢٢ ، ليستقلَّ الظاهرُ بعد رحيلِهَا بالحكمِ والإدارةِ .

فقلتُ له : وكيف أدار الظاهرُ شئونَ الدولةِ الفاطميةِ ؟

فقال : لم يكن الظاهرُ يتمتَّعُ بكثيرٍ من الدرايةِ والمقدرةِ التى كان يتمتعُ بها أجدادُهُ المعزُّ والعزيزُ لبُعْدِهِ عن دوائرِ الحكمِ والسلطانِ طوالَ حياةِ أبيه وخلالَ الفترةِ التى أدارت فيها سيدةُ الملكِ شئونَ البلادِ ، لذلك قام عند انفرادِهِ بالحكمِ بتعيينِ على الجرجرانى وزيرًا لدولتِهِ ، والجرجرانى من أصلٍ عراقىٍّ تولَّى في عهدِ الحاكمِ بعضَ شئونِ الإدارةِ وراح ينتقلُ بين مختلفِ المراتبِ الوظيفيةِ إلى أن وقع عليه اختيارُ الظاهرِ ليتولَّى ذلك المنصبَ الرفيعَ الذى أثبت جدارتَهُ به وظلَّ يشغلُهُ حتى إذا ماتوفى الظاهرُ منذ بضعةِ أشهرٍ ، أسرع بإعلانِ أكبرِ أبنائِهِ المستنصرِ أبى تميمٍ مَعْدٍ خَلَفًا له في الجلوسِ على العرشِ الفاطمى ، غير أن أهمَّ أحداثِ عهدِ الظاهرِ كانت



في تتابعِ الاضطراباتِ على الجبهاتِ الحربيةِ للفاطميين بشكلٍ لم يعدْ معه الحلمُ الفاطمى بالسيطرةِ على جميعِ الأراضى العربيةِ بما فيها أرضُ العراقِ قابلاً للتحقيق .

فقلتُ له : حقاً يانيلُ ، ما الذى حدث على تلك الجبهاتِ منذ أن توفى العزيزُ وهو يستعدُّ للزحفِ صوبَ الحدودِ البيزنطيةِ ؟

فقال : استغلَّ برجوانُ الذى تولَّى الوصايةَ على الحاكمِ هذه الاستعداداتِ الضخمةَ وأرسل الجيوشَ الفاطميةَ إلى حيث حققت سلسلةً من الانتصاراتِ على البيزنطيين في البرِّ والبحرِ قبل أن يتوصلَ الطرفان عامَ ١٠٠١ إلى عقدِ هدنةٍ مدتُها عشرةُ أعوامٍ ، وبعد أن تخلَّص الحاكمُ من وصايةِ برجوانَ ظلَّ ملتزماً بتلك الهدنةِ التى أتاحت له الفرصةَ لكى يلتفتَ إلى أراضى سوريا ولبنانَ التى مالبث أهلُها أن ثاروا على الحكمِ الفاطمى من جديدٍ عقب وفاةِ العزيزِ ، وعلى الرغمِ من أنه استطاع استعادةَ بسطِ نفوذِ الفاطميينَ على جميعِ هذه الأراضى حتى مدينةِ حلبٍ بعد سقوطِ دولةِ الحمدانيين عامَ ١٠٠٤ بما يقربُ من اثنى عشرَ عاماً

لم تدمْ هذه السيطرةُ طويلاً إذ ما كاد أهلُ سوريا يعلمون بوفاةِ الحاكمِ حتى عادوا إلى الثورةِ ليبذلَ الظاهرُ معهم جهودًا مضنيةً طوالَ عهدِه دون جدوى وليظلَّ الحالُ في الشرقِ إلى اليومِ لاينبىءُ عن وجودِ سيطرةٍ حقيقيةٍ للفاطميين على هذه الأراضى .

فقلتُ له : حسنًا ، لتحدِّثْني إذن عن مدى تطوُّرِ صورِ الحياةِ داخلَ مصرَ في عصرِكم الفاطميِّ ، فقد شاهدتُ الكثيرَ وسمعتُ الأكثرَ عن مظاهرِ الثراءِ التى كَسَتْ وَجْهَ الدولةِ الفاطميةِ منذُ انتقالِ عَرْشِهَا إلى القاهرةِ.

فقال : إن الثراءَ والبذخَ اللذاين اتسمت بهما الدولةُ الفاطميةُ فاقا كلَّ ماشهدَتْهُ مصرُ في كلِّ عهودِهَا الإسلاميةِ ، فثراءُ ماشيَّدُوهُ من قصورٍ تتناثرُ في أرجائِهَا قطعُ الأثاثِ الباهرِ وتتدلَّى على جنباتِهَا الستائرُ الحريريةُ الموشَّاةُ بالذهبِ ، كلُّ ذلك يخبرُ بما منحته مصرُ لهؤلاءِ الحكام من كنوزٍ بعدما ضبطوا شئونَ إدارَتِهَا ووفَّرُوا لأرضِهَا الأمنَ والاستقرارَ ، فلم تقتصرْ حياةُ الترفِ على أمراءِ بَيْتِ عُبَيْدِ اللّهِ المهدى فحسبُ بل امتدَّتْ إلى وزرائِهِمْ وموظفى إداراتِهِمْ وقُوَّادِ جنودِهِمْ ، كما أنه لا أستطيعُ أن أنكرَ ما نال أحوالَ جموعِ التجارِ والصناعِ والزراعِ المصريين من تحسُّنٍ نتيجةً للاستقرارِ والأمنِ الذى توفَّرَ لهم تحت حكمِ الفاطميين .

فقلتُ له : وماذا عن هذه الأعيادِ وتلك الاحتفالاتِ التى لا يمضى وقتٌ طويلٌ حتى تتزَّينَ القاهرةُ لاستقبالِ أحدِها ؟

فقال : كانت العادةُ منذ الفتحِ العربيِّ هى أن يحتفلَ المسلمون في مصرَ بعيدَيْنِ كلَّ عامٍ هما عيدُ الفطر والأضحى ، وبالإضافةِ إلى هذين العيدين اللذين يحتفلُ بهما العالمُ الإسلامى بأسْرِهِ اعتاد الفاطميون في مصرَ على الاحتفالِ برأسِ العامِ الهجرىِّ وبمولدِ النبىِّ « صلى الله عليه وسلم » وعليِّ بْنِ أبى طالبٍ والحَسَنِ والحُسَيْنِ والسيدةِ فاطمةَ ومَنْ يجلسُ على العرشِ الفاطميِّ إلى جانبِ الاحتفالِ بليلةِ مستهلِّ رجبٍ ونِصْفِهِ

ومستهلِّ شعبانَ ونصفِه وبدءِ سيرِ قافلةِ الحجِّ إلى مكةَ ورؤيةِ هلالِ رمضانَ ، كما أظهروا اهتماماً واضحاً بالاحتفالِ بعيدِ وفاءِ النهرِ وغيرِه من الاحتفالاتِ التى اعتاد أقباطُ مصرَ إقامتَهَا طوالَ العهودِ الماضيةِ ، وفي الأعيادِ يمدُّ الحكامُ الفاطميون موائدَ الطعامِ التى تنثرُ عليها أوانى الذهبِ والفضةِ والخزفِ المكدسةِ بكمياتٍ هائلةٍ من لحومِ الشياهِ والطيورِ إلى جانبِ أوانى الحلوى على اختلافِ أنواعِهَا ، أما فى الاحتفالاتِ بالموالدِ فيقتصرُ ماتمتلىءُ به الموائدُ على صنوفِ الحلوى التى تصنعُ في دارٍ أعدَّتْ خصيصاً لهذا الغرضِ تسمىَّ دارَ الفطرةِ ، هذا ولم تتوقفَ احتفالاتُ الفاطميين عند إحيائِهِمْ للموالدِ والأعيادِ بل امتدت أيضاً إلى الاحتفالِ بجيوشِهِمْ ساعةَ خروجِهَا إلى القتالِ أو عند عَوْدَتِها تعلو هاماتِ جنودِهَا أكاليلُ الانتصارِ .

فقلتُ له : لقد كانت عنايةُ الفاطميين



القبه الفاطميه

بتقويةِ جيوشِهِمْ وأساطيلِهِمْ عظيمةً يانيلُ ، أليس كذلك ؟

فقلت : بلى ياأبتى ، فلم يكن الفاطميون ليتمكَّنُوا من ضمانِ أمنِ وسلامةِ البلاد دون زيادة قواتِهِمْ والعنايةِ بها ، وقد كان أساسُ جيوشِهِمْ في عهدِ جوهرٍ والمعزِّ يتكوَّنُ من المغاربةِ الذين قدموا معهما إلى مصرَ ، ولكنه لما جلس العزيزُ على العرشِ بادر بإدخالِ عناصرَ جديدةٍ مختلفةٍ من الجنودِ الأتراكِ وغيرِهم إلى الجيوش الفاطميةِ ، ثم استعان من بعدِه بعددٍ كبيرٍ من الجنودِ السودانيين لتقويةِ صفوفِهَا ، وعلى الرغمِ من اختلافِ عناصرِ هذه الجيوشِ وتعدُّدِها لم يُقْدِمِ الفاطميون على إشراكِ المصريين في جيوشِهِمْ ، فكان ذلك من أهمِّ الأسبابِ التى أدَّتْ إلى عزلِ الحكومةِ الفاطميةِ عن نبضِ الشعبِ المصرىِّ وقَلَّلَتْ من إحساسِ جموعِ ذلك الشعبِ بما نالَتْهُ على يَدِهَا من استقلالٍ نسبىٍّ .

فقلتُ له : ها أنت ذا تعودُ من جديدٍ لتفرضَ علىَّ أحكامَكَ واستنتاجَاتِكَ مع أنك تتناسى في بعضِ الأحيانِ أن تعرفنى بكثيرٍ من الأخبارِ والأحداثِ المهمةِ مما يفرضُ علىَّ بذلَ جهدٍ شاقٍّ في البحثِ عما لاتقصُّه علىَّ أو تعرفنى به .

فقال : أنا أقصُّ عليك كلَّ ماهو مهمٌّ مما يدورُ في بلادِنَا من أحداثٍ وأعرِّفُكَ أولاً بأولٍ بجميعِ مايجرى على حياتِهَا من تغيراتٍ فماذا تقصدُ ؟

فقلت له :أقصدُ الكِنْدِىَّ وماسجَّلَه.......!

ولم أكد أذكرُ اسْمَ الكِنْدِىِّ حتى قفز نيلُ من مجلسهِ وغاب عنى لبضعةِ دقائقَ سرعان ماعاد بعدَها يحملُ إلىَّ الكثيرَ من الأوراقِ والمجلداتِ قائلاً : هذا كلُّ ماسَجَّلَهُ الكِنْدِىُّ جمعتُه لك وأودعتُه عندى في انتظارِ قدومِكَ إلينا!!



أسمى «تاريخ»، وجدت منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض، معه عشت خطواته الأولى، وبين تجمعاته سعيت متنقلا من بلد إلى آخر، وطنى حيث يجد الإنسان فى العمل والإبتكار، لأراقب مسيرة أعماله، أحصى أخباره، وأدون إنجازاته يوما من بعد آخر وعاما تلو عام، تعددت زيارتى إلى كل أقطار العالم فكان لبلادكم نصيب وافر من هذه الزيارات، فيها شاهدت قيام أول حضارات الإنسان على أرضه، ولها سجلت الكثير من صفحات البطولات، وسجلات الإنجازات والرقى، واليوم وبعد كل هذه الأعوام الطوال أجلس بينكم لأحدثكم حديث مصر عبر الزمان نسترجع سويا أحداث رحلاتى إلى أرض النهر والأهرامات والحضارة.



للمكتب العربى المعارف

١٠ شارع الفريق محمد رشاد - خلف عمر أفندى

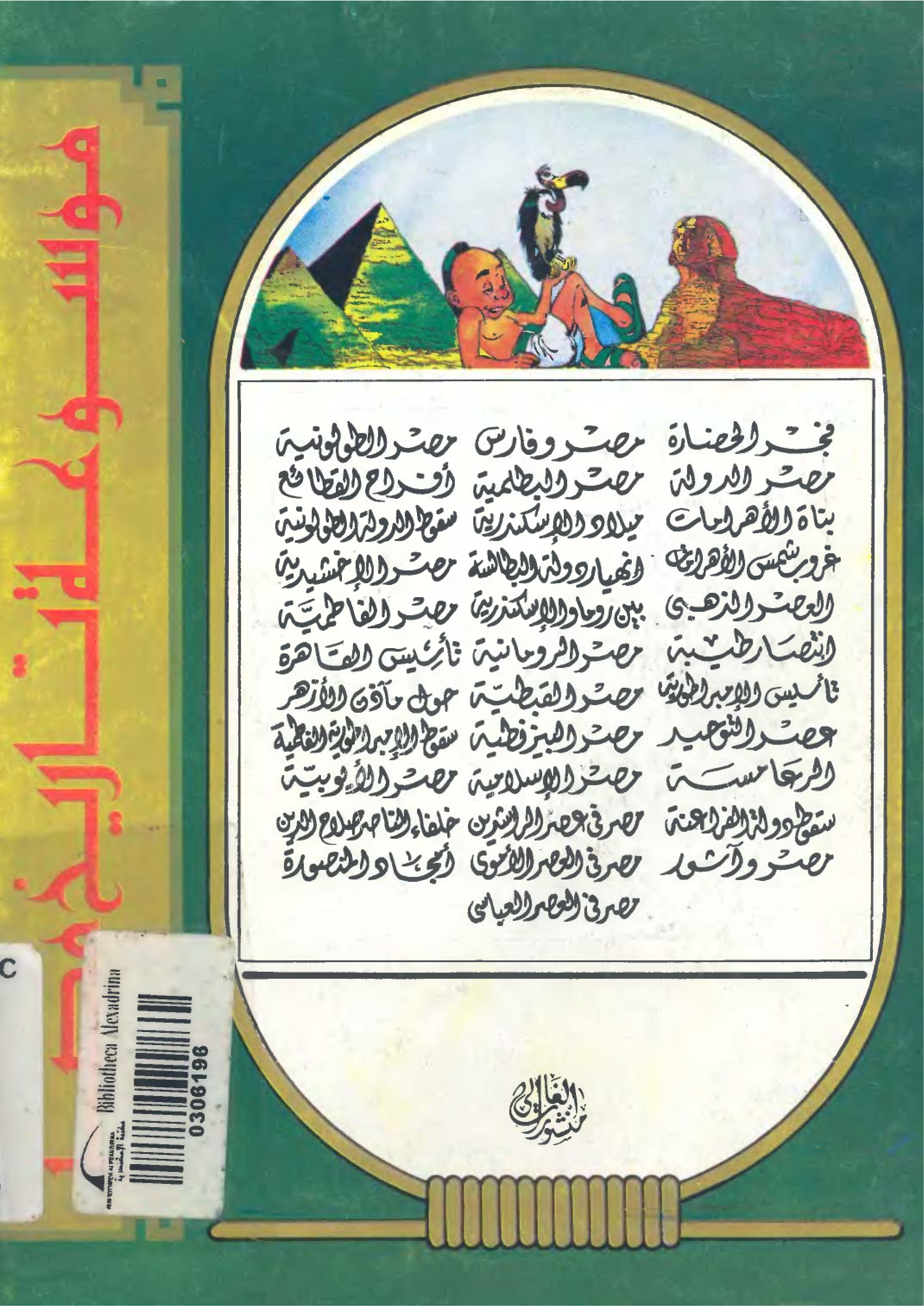
ميدان الحجاز - مصر الجديدة - القاهرة

ت ٢٤٢١٥٢٦



الناشر




فجر الحضارة
مصر الدولة
بناة الأهرامات
غروب شمس الأهرامات
العصر الذهبي
الإمبراطورية
تأسيس الإمبراطورية
عصر التوحيد
الرعامسة
سقوط دولة الفراعنة
مصر وآشور
مصر وفارس
مصر البطلمية
ميلاد الإسكندرية
انهيار دولة البطالمة
بين روما والإسكندرية
مصر الرومانية
مصر القبطية
مصر البيزنطية
مصر الإسلامية
مصر في عصر الراشدين
مصر في العصر الأموي
مصر في العصر العباسي
مصر الطولونية
أفراح القطائع
سقوط الدولة الطولونية
مصر الإخشيدية
مصر الفاطمية
تأسيس القاهرة
حول مآذن الأزهر
سقوط الإمبراطورية الفاطمية
مصر الأيوبية
خلفاء الناصر صلاح الدين
أمجاد المنصورة
منشورات الغزالي
Bibliotheca Alexandrina
0306196